مجلة كلية الآداب بقنا (دورية أكاديمية علمية محكمة)

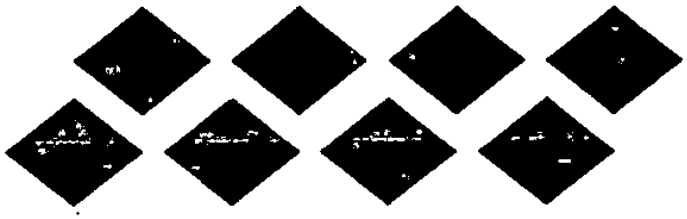

مَحَاوِرُ اليقِينِ في شِعْرِ الشَّافِعي

د. طه على خليفة أحمد

كلية التربية بالغردقة-جامعة جنوب الوادى

المقدمة :

الحمدُ لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين ، سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ، النبى الأمى ، الطاهر النقى .

وبعد،،،،،

كان الإمام الشافعي -رحمه الله -علما من أعلام الأمة الإسلامية ، وفذا من أفذاذها الذين لا يجود بهم الزمان إلا قليلا ، وقد جبله الله على النباهة والاستعداد الفطري لتلقى العلوم والنبوغ فيها ، كما أتحفه ملكات واستعدادات جعلته يعب من شتى العلوم عبا دون كلل أو ملل ، وينهض بالكثير من أعبائها دون جهد أو مشقة ، مما يجعل الجباه تنحني له اعترافا بفضله وعلمه ، فإضافة إلى تبحره فى الفقه والحديث ، نبغ فى علوم اللغة العربية من شعر ونحو وعروض ، وغيره.

وقد ولد الشافعى رضى الله عنه سنة مئة وخمسين من الهجرة فى السنة التى مات فيها أبو حنيفة رضى الله عنه ، وكانت ولادته بمدينة غزة بفلسطين ، وحمل من غزة إلى مكة وهو ابن سنتين ، وبها نشأ وقرأ القرآن الكريم .....وقدم مدينة بغداد سنة خمس وتسعين ومئة فأقام بها شهرا ثم رحل إلى مصر ، ولم يزل بها إلى أن توفى يوم الجمعة سنة أربع ومئتين ودفن بعد انعصر قرب المقطم[1] .

وكان رحمه الله شاعرا فصيحا بليغا مفطورا على قول الشعر السهل اللين ،الذى ينفذ إلى القلوب قبل الأذهان ، فقد قال عنه الأصمعي العلامة :" صححت أشعار هذيل على فتى من قريش يقال له محمد بن إدريس الشافعى ، وعن مصعب الزبيرى قال : كان أبى والشافعى يتناشدان الشعر ، فأتى الشافعى على شعر هذيل حفظا.... وقال المبرد : كان الشافعى من أشعر الناس وآدبهم " [2] ، وإلى هذا يشير د.عمر فروخ ، إذ يقول :"

---

[1] - ابن خلكان : وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان ، تحقيق : د. إحسان عباس ، ط/صادر – بيروت ، سنة ١٩٧٧، ج٤ ، ص ١٦٥.

[2] - ياقوت الحموى : معجم الأدباء ، ط/ دار المستشرق – بيروت ، (د. ت) ، ج ١٧ ، ص ٢٩٩-٣٠٠.

الشافعى شاعر مقل قريب المعانى سهل الأسلوب" [1] ، نحن إذن أمام شاعر فصيح بليغ ، من أشعر الناس وآدبهم ، بشهادة عماليق اللغة وآدابها .

ويتضح منهج الشافعى فى الشعر من خلال رأيه فيه ، إذ ورد فى كتابه (الأم) فى حكم جواز شهادة الشعراء قوله :" الشعر كلام حسنه كحسن الكلام ، وقبيحه كقبيح الكلام ، غير أنه كلام باق سائر ، فذلك فضله على الكلام ، فمن كان من الشعراء لا يعرف بتنقص المسلمين وأذاهم والإكثار من ذلك ، ولا بأن يمدح فيكثر الكذب ، لم ترد شهادته ، ومن أكثر الوقيعة فى الناس على الغضب أو الحرمان حتى يكون ذلك كثيرا ظاهرا مستعلنا ، وإذا رضى مدح الناس بما ليس فيهم ، حتى يكون ذلك كثيرا ظاهرا مستعلنا ،كذبا محضا ردت شهادته بالوجهين ، وبأحدهما لو انفرد به ، وإن كان إنما يمدح فيصدق ويحسن الصدق ، أو يفرط فيه بالأمر الذى لا يمحض أن يكون كذبا لم ترد شهادته ...."[2] ، هو إذن لا ينظم شعرا إلا إذا كان مطابقا لمعنى قول الرسول صلى الله عليه وسلم : الشعر كلام ، حسنه حسن ، وقبيحه قبيح ، لذلك كان مقلا فى شعره ، لأنه يتحرى فيه الصدق ، وحسن القول ، وقد أبان عن سبب هذه القلة أيضا، حيث يقول :

ولولا الشعر بالعلماءِ يزرى لكنت اليومَ أشعرُ من لبيدِ[3]

وهو يقصد الشعر الذى يهيم به الشعراء فى كل واد ، ويقولون فيه ما لا يفعلون ، وعلى الرغم من ذلك فقد تميزت هذه القلة بالكلمة الشعرية القوية المعبرة عن القيم السماوية ، والقواعد الأصيلة ، التى من المفترض أن يتبعها البشر جميعا ، كما تتزود منه بالحكمة والمثل ، وقبل ذلك كله تشعر فيه باليقين الحقيقى ،الذى يبعث على الطمأنينة ، والذى تسمو به النفس إلى آدميتها وفطرتها النقية .

وهذا البحث محاولة جادة لتسليط الضوء على الجانب الأدبى عند الشافعى ، مقتصرا على شعره فقط ، ولا يعنى بطبيعة الحال بالجانب الدينى الشرعى أو التاريخي أو

---

[1] – د. عمر فروخ : تاريخ الأدب العربى ، ط٣/ دار العلم للملايين – بيروت ، سنة ١٩٨٠، ج٢ ، ص ١٧٢.

[2] – الشافعي : الأم ، تصحيح محمد زهرى النجار ، ط/ دار المعرفة والطباعة والنشر – بيروت ١٩٩٨، ج٦ ، ص ٢٠٧.

[3] – الشافعى : ديوان الشافعى ، تحقيق : محمد عفيف الزعبى ،ط/ دار الجيل – بيروت ، سنة ١٩٨٦، ص ٣٩ .

غيره من الجوانب الأخرى ، فالدراسة تختص بالمحاور اليقينية فى شعر الشافعى ، وإلقاء الضوء على شعره ، الذي يدل على فحولة صاحبه وتمكنه من قوله وصياغته ، فالكثير يرى أنه صاحب اليد الطولي فى الفقه والسنة ، ولا يعرف أنه أيضا فحل من فحول علوم اللغة العربية كلها ، كما ذكر آنفا .

وكما هو معلوم فإن لفظ " يقين " له مدلولات ومعان عديدة ، فقد جاء فى لسان العرب، اليقين : العلم وإزاحة الشك وتحقيق الأمر ، وقد أيقن يوقن إيقانا : فهو موقن ، واليقين : نقيض الشك ، والعلم نقيض الجهل ، تقول : علمته يقينا ، وفى التنزيل العزيز " وإنه لحق اليقين " ، واليقين : الموت " واعبد ربك حتى يأتيك اليقين " ، واليقين : اطمئنان النفس إلى حكم مع الاعتقاد بصحته ، [1] ، والباحث يقصد بعنوان البحث " محاور اليقين " ، أى محاور الاطمئنان والرضا فى شعر الشافعى ، فكثير من شعره تهدأ به النفس ، وتثوب إلى رشدها ، لأنها جاءت كلها تخاطب الجانب النفسى عند الإنسان وتدعوه إلى الرضا التام بكل شئ ، فهذا الجانب من أهم الجوانب الإنسانية ؛ لأن الاستقرار والاتزان فيه إنما هو استقرار واتزان لباقى جوانب الإنسان الأخرى ، ويشعر أولئك الذين يعانون من القلق والتوتر النفسى أثناء قراءة هذه المحاور بشئ من الراحة والاتزان النفسى ،لأنها تمس وترا حساسا لديه ، فالشاعر يتكئ فيها على معين الدين الحنيف الذى لا ينضب أبدا ، فهى أليق فى توجهها إلى إنسان العصر الحديث الذى أصابه القلق والاضطراب .

وبهذه الروائع الشعرية يسهم الشافعي فى بناء الفرد فى المجتمع الإسلامي ، محاولا أن يغرس فيه ما يقومه ويرضيه ، ويجعل منه شخصا متزنا نفسيا فيعود بذلك أثره على مجتمعه الذى يعيش فيه .

وبطبيعة شخصية الرجل الفذة، وشهرته التى طبقت الآفاق ، وتعدد جوانب الفكر لديه ، فقد سبقت دراسات عديدة عرضت له ، سواء على مستوى الجانب الشخصى الخلقى ، أم على مستوى الجانب العلمى الفقهى ، لكن قليلة تلك الدراسات التى توجهت

---

[1] – ابن منظور : لسان العرب ، حققه : عبدالله على الكبير وآخرون ، ط/ دار المعارف (د.ت) ، مادة (يقن) ، ج٦ ، ص ٤٩٦٤ .

إلى دراسة أدب الشافعى – فى حد علمى – ، وكأن قوة فقهه قد أنست الدارسين جودة شعره .

ومن هذه الدراسات – على سبيل المثال لا الحصر – التى تناولت الشافعى فقيها أو عالما تربويا ، أو علما من أعلام الأمة ، أو غير ذلك . بيد أنها ألمحت فى طياتها لأدبه ، وأحيانا خصصت جانبا منها لذلك :

١– محمد أبو زهرة : الإمام الشافعي ، ط/ دار الفكر العربى – القاهرة ،١٩٨٥.

٢– د. مصطفى الشكعة : الإمام محمد بن إدريس الشافعى ،ط١/ دار الكتاب المصري – القاهرة ١٩٨٤.

٣– عبد الحليم الجندي : الإمام الشافعي ناصر السنة وواضع الأصول ،ط/دار المعارف – القاهرة ، ١٩٩٧.

٤– عبد الغنى الدقر :الإمام الشافعي ، ط/ دمشق ١٩٨٧.

وقد قسمت البحث إلى عدة محاور ، هى كالتالى :

١– الرضا بالقضاء والقدر .

٢– حتمية الرزق .

٣– مداواة أمراض القلوب .

٤– طبيعة الدهر والاستعداد لصروفه .

ثم خاتمة البحث متضمنة النتائج .

وقد سبق ذلك مقدمة ، أبنت فيها عن شاعرية الشافعي بشهادة كبار العلماء ، ثم بعض الدراسات السابقة لموضوع الدراسة ،لينتهي البحث بثبت بالمصادر والمراجع ، ثم الفهرست .

وعلى الله التوفيق والسداد ،،،،،

المحور الأول :الرضا بالقضاء والقدر

مسألة الرضا بالقضاء والقدر من المسائل التى شغلت قدرا ليس يسيرا من شعر الشافعي ، فالمتصفح ديوانه يلمس ذلك تماما ، ويجد الشافعي فى هذا المحور مصلحا اجتماعيا عبقريا ، يستولى شعره على القلوب ؛ لأنه يخرج من معين فاعل لا قائل ، كما جاء شعره فى هذا الجانب متضمنا أفكارا ونظريات وتجارب علمية حياتية وافية ، ويدل

دلالة كبيرة على تأثر شديد وفهم عميق للنص القرآني ، والأثر النبوي ، فهو دائما يدعو إلى أنه لا بد من التسليم لمشيئة الله ، مع سكون القلب وطمأنينته ورضاه بقضاء الله سبحانه وتعالى ؛ ليحيا المرء حياة هادئة ، وذلك جزء لا يتجزأ من تمام الإيمان ، وصحة العقيدة ، وفيه نرى شاعرنا يحلق بحس مرهف وشاعرية فذة ، يغوص بها فى أعماق اللغة ليخرج دررا وفرائد ناصعة ، يصوغها لؤلؤا لامعا براقا ، يشخص فيها الداء ، ويصف لنا فيها العلاج الناجع ، والدواء الشافي .

وإذا كان الشاعر لا بد أن يكون له " كيان مستقل ، ونظرة متميزة للحياة والناس ووجدان يقظ يرصد المجتمع والطبيعة والنفس الإنسانية " [1]، فإن شاعرنا كان خير من يمثل ذلك ، فهو يقظ ، رصد فى شعره مجتمعه ، والأهم طبيعة النفس الإنسانية بجانبيها الروحى والمادى .

على أن الغالب على شعر شاعرنا – الذى قامت عليه الدراسة – كثرة المقطوعات الصغيرة ، وهى مبثوثة فى ديوانه ، وأحيانا يصل الأمر إلى نظم البيت أو البيتين ، وغالبا ما يميل فيهما إلى التأمل والتجريد ، فمادة مثل هذه الأبيات ، – ومعظم شعر الإمام – فى المقام الأول هى مادة فكرية تأملية ، أما تجلياتها الفنية فتكمن فى ما فى شعره من مقابلات ومفارقات ، وصور شعرية جزئية وإن كانت قليلة ، فمثل هذا اللون من الشعر التأملي يميل إلى التقرير ، أكثر من ميله إلى الصور الخيالية (٢) ، وسيتضح كل ذلك جليا .

وفى مقطوعة رائعة هى عين التسليم لله ولقضائه سبحانه ، وقد بدأها بفعل الأمر " دع" ، حاملا فى طياته النصح والإرشاد ، والدعوة إلى الرضا والاستسلام لأمر الله ، وقد تعرض فيها لكل ما يمكن أن يصيب الإنسان من هم وغم ، مقدما العلاج بعد كل داء ، وهى مقطوعة مشهورة ؛ حتى لقد صارت مضربا للأمثال ، وينبوعا ثرا غنيا بالأعلاق النفيسة ، تتردد على كل لسان ، وفى كل زمان ومكان ، يقول فيها :

---

[1] – د . عبد القادر القط : الاتجاه الوجداني فى الشعر العربي المعاصر ، ط/ مكتبة الشباب –القاهرة ، سنة ١٩٧٨، ص ٢٧ .

[2] – أحمد تمام : الشافعى ملامح وآثار ، ط/ دار الفكر – عمان ،سنة ٢٠٠٣م ، ص ١٢٧ومابعدها ، (بتصرف) .

دَعِ الأيامَ تفعل ما تشــــاءُ وطِبْ نفسًا إذا حكم القضاءُ
ولا تجزعْ لحادثةِ الليالـــي فما لحوادثِ الدنيـا بقـاءُ
وكن رجلا على الأهوالِ جلدًا وشيمتكَ السماحةُ والوفاءُ
وإن كثرتْ عيوبُك فى البرايا وسرَّكَ أن يكون لها غطاءُ
تَستَّر بالسخاءِ فكــلُّ عيب يغطيه -كما قيل- السخـاءُ
ولا تُرِ للأعـــادي قط ذلا فإنَّ شماتةَ الأعدا بـــلاءُ
ولا ترج السماحةَ من بخـيلٍ فما فى النَّارِ للظمآن ماءُ
ورزقكَ ليس ينقصه التَّأنِّـي وليس يزيد فى الرزق العناءُ
إذا ما كنت ذا قلبٍ قنـــوعٍ فأنت ومالك الدنيا ســواءُ
ومن نزلتْ بساحتهِ المنايـــا فلا أرضٌ تقيه ولا سمــاءُ
وأرضُ الله واسعةٌ ولكــــن إذا نزل القضا ضاق الفضاءُ
دَعِ الأيامَ تغدر كل حيــــنٍ فما يغنى عن الموتِ الدواءُ(١)

يقين راسخ ، واطمئنان نفسي عجيب ، وسكينة أعجب ، تعالج كل الوساوس والأمراض ، وتردع النفس الأمارة بالسوء ، فليس أمام المرء إلا أن يدع الأيام تفعل ما تشاء ، ويطيب نفسا ، ولا يجزع لفعلها ، فأمر الله نافذ وقدره حتمي ، فليس للمرء أن يجزع ، مهما حدث من الأيام ، ولابد من الانطلاق نحو الصبر والجلد ، والكرم والسماحة والقناعة والوفاء وغير ذلك من الصفات الحسنة ، بعيدا عن التثبيط والتقاعس والإحباط ، فذلك يمنح المرء يقينا قويا ، ومحركا فى الحياة صلبا ، فالقلب بطبيعته " لا يخلو قط من الفكر إما فى واجب آخرته ومصالحها وإما فى مصالح دنياه ومعاشه ، وإما فى الوساوس والأماني الباطلة " (٢) ، فإن ركنا إلى هذه الوساوس والهواجس ، تحطمت أهواؤنا ورغباتنا على صخرة الحياة ، وصرنا مطية لليأس والقنوط ، فأضر ذلك بنا وبمجتمعاتنا التى لا تحتمل اليائسين والقانطين ، وفيها أيضا دعوة لعدم الندم على شئ فات ، وانقضى أمره ، إذ لا مرد له ، وليس هناك ما يحول دون نفاذه ، ومن ذا الذي يحول دون أمر يريده الله سبحانه .

1 - الديوان : ص ١٥-١٦ .
2 - ابن القيم : الفوائد ، ط/ مطبعة البيان – دمشق ، سنة ١٩٨٧ ، ص ٣١١.

وقد صاغ الشاعر كل ذلك بألفاظ شعرية موجزة سهلة ، تتناسب مع غرض القصيدة ، التي لا تحتاج من القارئ أن يصرف ذهنه عن مضمونها ؛ لفهم ما غمض منها .

وكثيرا ما يقدم لنا الشاعر درره الشعرية ، وقد أحاطها اليقين ، ولفها الرضا ، وكستها حنكته وخبرته فى الحياة صدقا وإيمانا ،وذلك نراه فى مقطوعة يشير فيها إلى ما ينجم عن حمل الهموم ، وما يصيب المرء من القلق والتوتر فى ترقب مصائر أمور حسمت ، فذلك قد يودى به إلى التعب النفسي ، أو قد يفضى به إلى الجنون أحيانا إذا اشتد ، فلم ذلك ، وأزمَّة الأمور كلها بيد الله؟! ، إذن فلابد أن يدرأ المرء عنه ذلك ، حتى تطمئن نفسه ، ويهدأ باله ، وقد جاءت أيضا في ألفاظ سهلة ، وعبارات تنفذ إلى القلب مباشرة ، كعادة شاعرنا ، يقول :

سهرتْ أعينٌ ونامتْ عيونُ ... فى أمورٍ تكون أو لا تكونُ
فادرأ الهمَّ ما استطعت عن النَّفـ ... ـس فحملانك الهموم جنونُ
إنَّ ربًا كفاك بالأمس ما كا ... ن سيكفيك فى غدٍ ما يكونُ(1)

أبيات شعرية تغنى عن عيادة نفسية بكاملها ، فيها دعوة التوكل على الله ، وأن يلقى المرء بأحماله تحت مشيئته سبحانه ، فهو المصرف للأمور ، وهو الذى يكفى عبده المتوكل عليه بصدق كل ما يشغله ويهمه ، وفيها يقين راسخ رسوخ الجبال ، وراحة للنفس تصبح معها آمنة مطمئنة ، لا يعتريها الخور أو الضعف ، وشعور ببرد التسليم والرضا بقضاء الله وقدره ، وأبيات مفعمة بالصدق لا تخرج إلا من نفس ذاقت حلاوة الإيمان ، وخبرت الدنيا كنفس شاعرنا .

ومن الأبيات اليقينية الرائعة ، قول شاعرنا :

ولرب نازلةٍ يضيقُ لها الفتى ... ذرعًا وعند الله منها المخرجُ
ضاقتْ فلما استحكمتْ حَلقاتُها ... فُرِجتْ وكنت أظنُّها لا تفرجُ(2)

---

1 – الديوان : ص ٨٥ .

2 – الديوان : ص ٣٢ .

ما أظن أحدا حلت به مصيبة ، أو حزبه أمر لم يستشهد بهذين البيتين ، أو استشهد له بهما ،إلا قويت عزيمته ، لما فيهما من دعوة إلى الصبر والتحمل ، والرضا بقضاء الله وقدره ، وإقرار حقيقة ، هى أن بعد الضيق فرجا وبعد الهم مخرجا ، وقد تعهد الله بذلك فى كتابه ، فالفرج لا يأتى إلا بعد استحكام الأمر واستغلاقه ، وبعد أن ييأس المرء ويقنط ، ويفقد المخرج أو الفرج ، ثم يهبط فرج الله فتثلج به الصدور ، وتهدأ به النفوس ، وفى الأبيات أيضا خيال معبر إذ يخيل إلينا أن النازلة شئ ثقيل قد أطبق بحلقاته على المرء ، وجثم على صدره ، حتى لا فكاك منه ،وإذ بهذا الشئ تنفرط حلقاته ، ويتنفس المرء الصعداء ، بعد أن فقد الأمل والرجاء فى الفكاك منه .

وعلى غير عادة شاعرنا محمد بن إدريس ، فى الإكثار من المقطوعات الشعرية – كما ذكرنا آنفا – ، تقابلنا هذه القصيدة التى تربو على العشرين بيتا فى ديوانه ، وفيها يقدم مجموعة من الأدواء النافعة والعلاجات الناجعة ، لعلاج الهموم وتفريج الخطوب والكروب ،وقد افتتحها بما يستبشر به المرء ، ويزيح عنه الهم ، ويفتح له بابا للأمل على مصراعيه ، ومنها قوله :

سيُفتَحُ بابٌ إذا سُدَّ بابٌ نَعَم وتَهون الأُمورُ الصِعابْ

ويتّسعُ الحالُ من بعد ما تضيقُ المذاهِبُ فيها الرحابْ

مع الهمِّ يسرانِ هوِّن عليك فلا الهم يجدي ولا الاكتئابْ

فكم ضقتَ ذرعًا بما هِبْتَهُ فلم يرَ من ذاك قدرٌ يُهابْ[1]

فعلى المرء أن يدرك رحمة الله سبحانه وتعالى بعباده ، ويطمئن إلى ذلك ، بل ويتيقن أن الله لا يغلق بابا فى وجه امرئ إلا ليفتح له بابا آخر ، ييسر له فيه أمره ، ويهون عليه مصابه ، ويفرج له كربه ، ونرى الحس القرآني واضحا فى هذه الأبيات ، فالله سبحانه قال :" فإن مع العسر يسرا ، إن مع العسر يسرا" ، فجعل اليسرين فى مقابل العسر الواحد ، فلا يغلب عسر يسرين أبدا ، لكن الأمر بحاجة إلى ثقة فى الله ووعده ، فما فائدة الهم والغم والاكتئاب إذن ؟.

ثم يواصل الشاعر قائلا :

ورزقٌ أتاك ولم تأتِه ولا أرّقَ العَيْنَ منه الطِّلابْ

[1] – الديوان : ص ٢٩ .

وناءٍ عن الأهل ذي غُربةٍ أُتيح له بعد يأسٍ إيابْ
وناجٍ من البحر مِن بعدما علاه مِن الموجِ طامٌ عبابْ
إذا احتَجَبَ الناس عن سائلٍ فما دون سائل ربي حِجابْ
يعودُ بفضلٍ على مَن رجاه .. وراجيه في كل حين يُجابْ [1]

يدعو الشاعر فى هذه المقطوعة إلى اطمئنان المرء على رزقه الحتمى ، وعدم اليأس ، فكم من مغترب نأي عن أهله ، وحيل بينه وبينهم ، فلما يأس ويأسوا من إيابه ، يسر الله له أمره ، وأتاح له إيابا سهلا إليهم ، وكم من مبحر غلبه الموج القوى على أمره وتيقن من هلكته غرقا فى عباب اليم ، فأنجاه الله سبحانه ، فكيف للمرء أن ينسى سؤال ربه الذى لا يحتجب عن سائله أبدا كالبشر ، ولا يخيّب ظن راجيه أبدا ؟ ، ففضله يعود به سبحانه للذي يرجوه ويدعوه . .

ثم يواصل شاعرنا قائلا :

فلا تأسَ يومًا على فائتٍ وعِنْدَك منه رِضا واحتسابْ
فلا بُدَّ مِن كَوْنِ ما خُطَّ في كِتابِك تُحبَى بهِ أو تُصابْ
فمَن حائلٌ دون مافي الكتاب ومَن مُرْسِلٌ ما أباه الكتابْ
إذا لَم تَكُنْ تاركاً زينةً إذا المرْءُ جاءَ بها يُستَرابْ
تَقَع في مواقِعَ تَرْدى بها وتَهوي إليك السِّهامُ الصِّيابْ [2]

يقال : إن التفكير فى المصيبة ، مصيبة أخرى ، وقد فطن شاعرنا رحمه الله إلى ذلك ، فكان متفائلا جدا ، لأنه يعلم " إنه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون "، فمعظم الأمراض النفسية مكمن علاجها فى عدم اليأس ، والرضا بقضاء الله والثقة به ، وعقد الأمل عليه سبحانه ، فحينها يتبدل اليأس أملا والهم فرجا ، إلى كل ذلك فطن شاعرنا ، فدعا إلى عدم اليأس والقنوط وأن نرضى ونحتسب ، فقد رفعت الأقلام وجفت الصحف ، ولا بد من كون ما خطه الله فى كتابه وما قدره لعباده ، سواء رضى به المرء

---

1 – الديوان : ص ٣٠ .

2 – الديوان : ص ٣٠ .

أم لم يرض ، فلا حائل لما قدره الله ، ولا فار منه ، ولا حيلة للمرء غير الرضى ، فستصيبه سهام القدر لا محالة .

وفى مقطوعة أخرى رائعة ، يسوقها لنا الشاعر، يحث فيها على التسليم بقضاء الله ، حتى تبرأ نفوسنا من قلقها وتوترها لمن يوقن بها ، فلا يمكن لأحد أن يدفع مقدور الله سبحانه وتعالى بيده ، حتى الطبيب بطبه ودوائه لا يملك لقدر الله دفعا ولا إرجاء ، فنرى الطبيب يبرئ كثيرين من داء يصيبهم - بإذن الله -، ويموت هو بنفس الداء ، أما كان يستطيع له علاجا ، وهو الذى يداوى الناس منه ؟! ، لكنه أمر الله النافذ ، وقدره المحتوم ، فالكل سيهلك ويموت ، الطبيب والمريض ، وصانع الدواء وبائعه ، يقول فى ذلك :

إن الطبيبَ بِطبِّه وَدَوائـه ... لا يستطيع دفـاع مقدُورِ القضَا
ما للطبيب يموت بالدَّاءِ الذي ... قد كان يبرىء مثله فيما مضَى
هَلَكَ المُدَاوِي والمُدَاوَى والذي ... جَلَبَ الدَّواءَ وَباعهُ وَمَن اشترى(1)

ويوضح الشاعر منهجه الذى ينهجه ، وطريقه الذى خطه لنفسه فى الرضا بقضاء الله والتسليم به ، لينهج القلقون والقانطون نهجه ، فهو الله حسبه فى كل شئ ، بل ويزداد يقينا من رضا الله عنه ، ووده له حينما يتعرض له الدهر بخطوبه ، وبنكبه بنكباته رحمه الله ، وهذا عين الرضا ، يقول :

أنت حَسْبي وفيك للقلب حسبٌ ... ولحسبي -إن صح لي- فيك حسبٌ
لا أبالي -متى ودادك لي صح- ... من الدّهر ما تعرض لي خطبُ(2)

وفى النهاية يضع الشاعر يده على لب القضية ، وسبب الإحن والمصائب ، حينما يبين لنا خطر الدنيا ، وأن معظم المصائب والشرور فى تتبع ملذاتها ، واعتناق سرابها ، وهى فانية لا بقاء لها ولا قيمة أو فائدة منها ، ولا تستحق منا عناء أو هرولة خلفها ، وقد جهدنا أنفسنا ، وأتعبنا أبداننا ، فى الحصول على سراب ، فلنترك كل ذلك ولا نكترث به ،

---

1 – الديوان : ص ٩١ .

2 – الديوان : ص ٢٥ .

ونتفرغ لما يصل بنا إلى الفردوس الأعلى ، ويبعدنا عن نار جهنم والعياذ بالله ، وفى هذا علاج لكل الأزمات.

يقول :

يا من يعانق دنيا لا بقاءَ لها ... يمسي ويصبح في دنياه سفّارا

هلا تركتَ لذي الدنيا معانقة ... حتى تعانق في الفردوس أبكارَا

إن كنت تبغي جنَانَ الخلدِ تسكنها ... فينبغي لك أن لا تأمن النَّارَا([1])

وهكذا جاء أسلوب الشافعي فى أبياته أسلوب سهل لا صعوبة فيه ولا تعقيد ، يتناسب مع الغرض من شعره ، ولا تعنى هذه السهولة ضعفه ، بل العكس لقد كان الشاعر متمكنا من اللغة ، قابضا على ناصيتها ، يختار منها ما يلائم شعره دون تكلف ، كما كانت ألفاظه ليست مجرد حشد ، بل فى أحايين كثيرة تثير لدى المتلقي معانى تنفذ إلى قلبه مباشرة ، إذ غلبت عليها عاطفته الصادقة دون إسراف أو غلو ، فهو صاحب ذات صادقة ونفس صريحة حكيمة ، مما طبع أبياته بطابع الصدق واليقين الراسخ .

[1] – الديوان : ص ٤٥.

المحور الثاني : حتمية الرزق :

يشغل الحديث عن الرزق حيزا كبيرا فى ديوان الشافعي ، لأن الرزق دائما مما يجلب للإنسان المتاعب والخوف والرعب والقلق والاضطراب فى حياته ، فما أقسى هموم الإنسان وما أشد تفكيره فى أمر معاشه ، والحصول على رزقه ، ويا ويل الإنسان إذا بلى بالطمع، وأطلق العنان لشهوته فى جمع المال وصار عبدا للدرهم والدينار ، فستنقلب حياته جحيما ، ولن يهدأ له بال حتى يفجؤه الموت ، ولا منقذ له إلا أن يعرف الغاية من جمع المال ، وأن مما يحرم منه نفسه فى الدنيا ، ويحاسب عليه فى الآخرة ، ويتوارثه الأهل بعد موته ، ويوقن أن كل شئ بقضاء الله وقدره فيسلم ويهدأ ، كل ذلك تضمنه شعر الشافعي ، الذى حاول بكل ثقة فى الله ويقين راسخ معالجة هذا الأمر ، فى لغة تقريرية واضحة ، وأسلوب سهل كما عودنا على ذلك .

ويتطرق الشاعر فى مناقشته قضية الرزق إلى عدةِ أمور ، منها أنها مسألة حتمية مكفولة من الله سبحانه وتعالى ، لا دخل للإنسان وعقله فيها ، فالرزق لا يأتي مطلقا بالتفكير والتدبير ، فلو كان كذلك لما وجدنا فى دنيانا عاقلا لم يظفر من الدنيا بشئ ، أو ما وجدنا أحمق أو مجنونا قد بسط الله له فى الرزق ، وهو فاقد عقله ، وفى ذلك يقول :

لو كنتَ بالعقلِ تُعْطَى ما تريد إذن ... لما ظفرتَ من الدنيا بمرزوق

رُزِقْت مالا على جهلٍ فعشت به ... فلستَ أول مجنونٍ ومرزوق [1]

ويعلق هو نفسه على هذه المسألة ، قائلا: " فهذا عام لا خاص فيه ، فكل شئ من سماء وأرض وذي روح وشجر وغير ذلك ، فالله خلقه ، وكل دابة فعلى الله رزقها ويعلم مستقرها ومستودعها " [2] ، فقد تجد إنسانا جاهلا أو أبلها ينال عيشه ورزقه دون كد وتعب ، وتجد عالما ذكيا ، ضُيِّق عليه رزقه ، وقد أتعب فيه بدنه ، ولم يرح جسده فى الحصول عليه ، لأن الأرزاق لا تأتى بإعمال العقل ، فو كان الأمر كذلك ، لهلك كل من لا عقل له .

---

[1] – الديوان : ص ٦٦-٦٧ .

[2] – الشافعى : الرسالة ، تحقيق : أحمد محمد شاكر ، ط/ القاهرة ،(د.ت)، ص ٥٤ .

ولا زال شاعرنا يتحدث بالعقل والمنطق ، مؤكدا على حتمية مسألة الرزق حتى يريح الإنسان نفسه ولا يجهد بدنه فوق طاقته ، فهو دائم النداء دون كلل أو ملل ليؤكد أن الغنى والرزق الوفير لا يجرى للمرء أبدا بالحيلة والفكرة ، ويخاطبه قائلا : أعلم أن الرزق أمر محسوم ومقدر ، فلو سمعت عن امرئ صاحب جد – حظ – قد بلغ من جده أنه لو أمسك فى يده عودا من الخشب فأثمر هذا العود دون أى مقوم من مقومات الحياة ، فلا تكذب ذلك ، فلا حيلة له فى رزقه ، وإذا سمعت عن امرئ فقير محروم ، أتى له بماء ليروى ظمأه – والماء يملأ الكون – فغاض منه فلا تكذب أيضا ، لأن لا رزق له فيه ، وهى أمثلة يدرك الشاعر أنها مستحيلة التحقيق ، لكنه ساقها ليبين للناس حتمية الرزق.

ويواصل الحديث عن تلك الحتمية المؤكدة ، وأنها ليست بالعقل ، ضاربا بنفسه مثلا ، وقد أدرك مكانته ، والناس كذلك ، فلو كان كذلك – الرزق بالعقل والتدبير – لوجدنا الإمام نفسه من أغنى خلق الله سبحانه وتعالى ، لما وهبه الله من عقل ذكى ، وحجة قوية ، لكنه يرى – رحمه الله – أن الله غالبا لا يجمع لعبده بين رزق الذكاء والفطنة وقوة الحجة التى وهبها للشاعر ، وبين كثرة المال ، فهما ضدان مفترقان لا يجتمعان ، ودليله على قضاء الله وقدره فى ذلك ، أن كثيرا ما نرى بؤس عيش اللبيب الفطن ، وطيب عيش الأحمق الذى لا عقل له ، ثم على الذى يسر الله رزقه ووسعه عليه أن يشكر ربه ويحمده ، لأنه كفاه بغناه أمورا صعبة كثيرة ، فالغنى يقرب كل أمر بعيد المنال ، ويفتح أمام العبد كل باب موصد ، فكل ذلك لابد أن يقرن بالحمد والشكر .

يقول :

فإذا سمعتَ بأن مجدودًا حوى ... عودًا فأثمرَ في يديه فصدّق

وإذا سمعتَ بأنَّ محرومًا أتى ... ماء ليشربه فغاضَ فحقق

لو كان بالحيَل الغنى لوجدتني ... بنجومِ أقطارِ السماء تعلُّقي

لكنَّ من رُزِق الحجَى حُرِمَ الغِنَى ... ضدان مفترقان أي تفرقِ

ومن الدليل على القضاء وحكمه ... بؤس اللبيبِ وطيبِ عيش الأحمقِ

إن الذي رزق اليسارَ فلم ينل ... أجرًا ولا حمدًا لغير موفق

والجد يدني كل أمر شـــاسـعٍ والجد يـفتح كل باب مغلـق([1])

ومعروف أن من أكثر الأمور هولا التى تقابل المرء فى حياته ، شبح الـرزق – كما ذكرنا آنفا –على الرغم من أن الله سبحانه وتعالى قد كفل ذلك لعباده ، لذا يجب على الإنسان أن يخضع لله ، ويسلم له أمره ، ويطرد عنه الهموم والوساوس .

وتأثرا بهدى القرآن الكريم والحديث الشريف ، يقـول الـشاعر وبكـل رضـى وتسليم ويقين ،– وبعد أن أكثر من الحديث على حتمية الرزق ، ومؤكدا أنها أمر مكفـول – ، أنه إذا أصبح في يومه وقد امتلك قوت هذا اليوم ، فقد طرد عنه الهم والغم ، ويحث الشاعر على الزهد والتقشف فى الحياة ، وأن يترك المرء كنز المال حتى لا يحاسب عليه ، ويسلم لله أمره ويتركه له سبحانه يدبره كيف يشاء ، فهو لا يملك إرادة تحقق لـه مـا يريد ويطمح ، ولا لإرادته قيمة أو قدرة أمام إرادة الله العلى القدير .

يقول الشاعر فى ذلك :

إذا أصبحتُ عندي قوت يومِي فخلِّ الهمَّ عنى يا سعيـدُ

ولا تخطرْ همومُ غدٍ ببالـى فإنَّ غدًا له رزقٌ جديـدُ

وأسلم إن أرادَ الله أمـرًا فاتركُ ما أريد لما يريـدُ

وما لإرادتي وجهٌ إذا مَـا أرادَ اللهُ لي ما لا أريـدُ([2])

ولا يفكر مطلقا فى رزق غد ولا يخطر بباله ، لأن من كفل له رزق اليوم سيكفل له رزق الغد ، ومن كان لا يعلم هل سيكون غدا حيا أم لا ؟ لماذا يفكر فى رزق الغـد ، ويحمـل الهم ؟ ، يقول :

من كان لم يُؤْتَ علمًا فى بقاء غدٍ ماذا تفكّره فى رزق بعد غدِ ([3])

ثم على المرء أن يصبر ولا يتعجل أمر رزقه ولا يشكو إن ضاق عليـه ، وهـذا خطأ يقع فيه معظم الناس ، فيضطرهم ذلك إلى إغضاب الله سبحانه وتعالى ، وقد فطـن الشاعر إلى ذلك ، فقال محذرا وراشدا وداعيا إلى الصبر على تأخر الرزق ، معالجا هـذا

---

[1] – الديوان : ص ٦٥ .

[2] – الديوان : ص ٣٩– ٤٠ .

[3] – الديوان : ص ٣٨ .

الأمر المقلق ، عسى أن يزيل الله هذا الضيق ، ويبدله بالفرج ، وهذا أمر محسوم من الله ، فما على المرء سوى السعي والعمل واليقين ، وألا يتبرم من قضاء الله .

وفى ذلك يقول شاعرنا :

وإن ضاق رزقُ اليوم فاصبر إلى غدٍ عسى نكباتُ الدهر عنك تزولُ[1]

ولاغرو أن يفيض معين شاعرنا بكل ثقة ويقين ، ولا عجب أن يتعهد لقرائه وتلاميذه ، ويربيهم على المعاني الكريمة ، والأخلاق الرفيعة السامية ، ويغرس فيهم حسن التوكل على الله والثقة المطلقة به ، وذلك استنادا من الشاعر على قول رسول الله صلى الله عليه وسلم " لو أنكم توكلون على الله تعالى حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير تغدو خماصا وتروح بطانا " [2] ، ضاربا بنفسه مثلا وقد هذبها وأدبها مستحضرا هذه الثقة دائما ، -وقد نقش على خاتمه " كفى بالله ثقة لمحمد بن إدريس" ، وهو القائل :" ربيت بالحجاز وما عندنا قوت ليلة ، وما بتنا جياعا قط " [3]- ، فى التوكل على الله ، وفى يقينه بأن الله رازقه ، ورزقه لن يفوته! ، وقد قسم الرحمن رزق الخلائق سبحانه ، وهذا لا شك عين اليقين والرضا من الشاعر ، يقول :

توكلتُ في رزقي على الله خالقي وأيقنتُ أنَّ اللهَ لا شك رازقي

وما يك من رزق فليس يفوتني ولو كان في قاعِ البحارِ العواميق

سيأتي به اللهُ العظيمُ بفضله ولو، لم يكن من اللسان بناطق

ففي أي شيء تذهب النفسُ حسرة وقد قسَّم الرحمنُ رزقَ الخلائق[4]

وفى النهاية يدعو الشاعر الفطن اللبيب إلى تقوى الله سبحانه وتعالى فهى مفتاح الرزق ، والخير للمرء ، وتغرس فيه اليقين فلا تجعله يخاف الفقر أبدا ما دام الله سبحانه فى السماء ، يرزق عباده حتى الطيور فى أعشاشها ، والحيتان فى بحارها ، وعلى المرء أن يفطن إلى أن الرزق ليس بالقوة العضلية أيضا – كما ذكر سابقا أنه ليس بالعقل والتدبر – فلو كان كذلك " ما أكل العصفور شيئا مع النسر " ، ليختم شاعرنا هذه

---

[1] – الديوان : ص ٧٠ .

[2] – الألباني : صحيح الجامع الصغير وزياداته ، ط٢/ المكتب الإسلامي – بيروت ١٩٨٦ ، ج٢ ، حديث رقم ٥٢٥٤ .

[3] – عبد الغنى الدقر : الإمام الشافعي ، ط٣/ دار القلم – دمشق ١٩٨٧ م ، ص ٣٦٢-٣٦٣ .

[4] – الديوان : ص ٦٦ .

المقطوعة بالدعوة إلى العزوف عن الدنيا ، فإن أحدا لا يعلم متى سيموت ، فكم من صحيح سليم فوجئ الناس بموته ، وكم من عليل يتوقع الناس رحيله عنهم فلا يرحل ، فالدنيا لا تستحق عناء وتعبا .

يقول :

عليكَ بتقوى اللهِ إن كنت غافلًا ... يأتيكَ بالأرزاق من حيث لا تدري

فكيف تخاف الفقرَ واللهُ رازقٌ؟ ... فقد رزقَ الطيرَ والحوتَ في البحرِ

ومن ظنَّ أن الرزقَ يأتي بقوةٍ ... لما أكلَ العصفورُ يومًا مع النسرِ

نزولٌ عن الدنيا فإنَّك لا تدري ... إذا جنَّ ليلٌ هل تعيش إلى الفجرِ

فكم من صحيحٍ مات من غير علَّةٍ ... وكم من سقيمٍ عاش حينا من الدهرِ([1])

وهكذا استطاع شاعرنا ترطيب النفوس ، وإراحة القلوب بالكلمات الرقيقة السهلة ، والمعاني الرفيعة ، والمفاهيم الصحيحة ، وإخراج اليائس من الحالة التى يعيش فيها بإحياء الأمل عنده ، والرجاء له فى الله الرزاق .

[1] – الديوان : ص ٤٥ .

المحور الثالث : مداواة أمراض القلوب

على الرغم من أن الطب البشرى قد بلغ شأوا عظيما فى مداواة أمراض الجسد ، فإن أمراض القلوب حيرت جهابذة العلم وفقهاء الطب ، ووقف الكل عاجزا أمام التخلص من هذه العلل ، وتلك الآفات التى تصيب النفس البشرية ، كالحقد والبغض والحسد والكبر...، فهي تؤجج النيران وتثير الإحن والضغائن ، وتودي بصاحبها إلى غياهب الظلمات ، ولكل هذه العلل علماء هم كالأطباء فى شفاء الأمراض الجسدية ، فهم دائما ما يصفون العلاج الناجع ، والدواء النافع ،متكئين فى ذلك على نبع الدين الحنيف .

ويؤكد شاعرنا على أبعاد تلك الأمراض وما ينجم عنها من مصائب ، فهي صعبة العلاج ؛ لأنها تحتاج إلى إيمان عميق ويقين راسخ ، وثقة بالله ، وشاعرنا نفسه رحمه الله كان عرضة للحسد ، فقد أوشوا به عند هارون الرشيد ، ولولا أن الله ألقنه حجته ، ووهبه قدرة على الدفاع والحوار ما نجا من براثن الخليفة [1] .

وقد استغل الشاعر هذا الموقف ،وجعله موقفا عاما لا خاصا ، يبين،فيه خطورة الحسد ، وأبعاده السيئة ، فرد على حساده بالعقل والمنطق ، قائلا : لقد تمنى رجال حساد موتى ، فإن أمت فذلك سبيل كل الناس بعدى ، وما موت من مات قبلى أوقف الدنيا ، ولا الباقى بعدى سيخلد ، فالكل إلى زوال ، وربما الذي يرجو موتى يسبقني إليه ، فلم كل ذلك الحسد وتلك الضغينة ؟.

يقول :

تمنّى رجالٌ أن أموت ، وإن أمتْ ... فتلك سبيلٌ لستُ فيها بأوحدِ

وما موت من قد مات قبلي بضائرٍ ... ولا عيش من قد عاش بعدي بمُخْلِدِ

لعلَّ الذي يرجو فنائي ويدَّعي ... به قبل موتي أن يكون هو الردى([2])

وهذا طبع فى ذوى القلوب المريضة من الحسادين والحاقدين جبلوا عليه ، لا يهدأ بالهم أبدا ومحسودهم بخير ، فإن أصيب بمصيبة تراهم من أكثر الناس فرحا وسعادة ، وإن رأوه فرحا مستبشرا أصابهم النكد والغم ، يقول :

---

[1] – محمد الزين و أحمد القطان : هارون الرشيد الخليفة المظلوم ، ط/ الكويت ، سنة ١٩٨٨ ، ص ١٢٥ .

[2] – الديوان : ص ٣٦ – ٣٧ .

وإن رأوني بخيرٍ ساءهم فرحى وإن رأوني بشرٍ سرهم نكدِي ([1])

ولا شك أن داء الحسد أصعب هذه الأمراض ، وأقلها شفاء ، وأعزها علاجا ، " حتى عده بعض العلماء من الكبائر ، وهو ضرر على الحاسد فى الدين والدنيا ، وله آثاره الاجتماعية الخطيرة ، لأنه يشعل نار البغضاء ، ويرفع راية العداوة بين الأقرباء والأصدقاء ، ويمنع المساعدة والمعاونة بين الحاسد والمحسود ، ويأكل قلب الحاسد " [2] ، وهذا ما يعلمه الشاعر يقينا ، لذا قدم بين أيدينا عدة أبيات يعالج فيها هذا الداء المستشري فى الناس ، وما ينجم عنه من أمراض أخرى كالحقد والغل والضغينة ، ولعل من أنجع هذه الوسائل العلاجية إقناع النفس بأن ما عند المحسود هي إرادة الله ، وقسمته بين الخلائق ، وأنها نعمة منه سبحانه لهذا العبد سيحاسبه عليها ، فمن تمنى مثلها لنفسه ، فليرجو الله أن يرزقه كما رزق غيره ، يقول :

ففي أى شئٍ تذهب النفسُ حسرة وقد قسَّم الرحمنُ رزقَ الخلائق ([3])

كلام مقنع ، يساعد الحاسد على أن يتخلص من هذا الداء العضال الذي ركب في نفسه ، فالحسد وما ينجم عنه من غل وحقد ، إنما هو طوق فى العنق ، كما هو مرارة فى القلب ، يقول :

خلِّص فؤادكَ من غلٍ ومن حسدٍ فالغلُّ فى القلبِ مثل الغل فى العنق ([4])

تشبيه رائع من الشاعر إذ جعل الغل والحسد فى القلب مثل القيد فى عنق الإنسان ، يكبله ويشل حركته ، ويعطل كل مناحى الحياة لديه ، وقد عودنا الشاعر على أمثال هذه التشبيهات ، يحشدها حشدا فى قصائده ، ليعبر من خلال هذا الحشد من الصور التشبيهية عن معنى بعينه يتكرر فى أبيات من القصيدة ، وبهذه الصورة التى رسمها الشاعر استطاع أن يبين بشاعة الحسد والغل ،وضررهما على الحاسد قبل المحسود ، فهما قيد فى عنقه ، قبل أن يكونا فى عنق الآخر .

ومن الأدواء الناجعة أيضا ، فى مداواة مثل هذا المرض ، (القناعة) فهى تورث الرضا والغنى ، وتزيل الهم والحقد ، فليتمسك المرء بأذيالها ، وليزهد فيما عند

---

[1] – الديوان : ص ٣٧ .

[2] – حسن أيوب : السلوك الاجتماعي ، ط/ دار البحوث العلمية – الكويت ١٩٨٣، ص ٩١.

[3] – الديوان : ص ٦٦ .

[4] – الديوان : ص ٦٧ .

الناس ، يصير أغناهم ، وأعزهم ، ويتساءل الشاعر علام الحسد ؟، وهو الذل والنكد بعينه ، ويورث الهم والغم للمرء ، وما الحسد إلا من الطمع ، والطمع من المهالك ، وعلاج كل ذلك القناعة فى القلب ، يقول :

رأيتُ القناعةَ رأسُ الغنى ... فصرْت بأذيالها متمسك
فلا ذا يراني على بابه ... ولا ذا يراني به منهمك
فصرت غنيا بلا درهم ... أمر على الناس شبه الملك([1])

ومن أمراض القلوب أيضا (الطمع) وما يورثه من ذلة وصغار ، وعلاج ذلك أيضا القناعة ، وشاعرنا كان ولا يزال نموذجا لمن يريد أن يحتذى به فى القضاء على أمراض القلوب ، فقد أمات كل مطامعه ، وأراح نفسه من همها ، وأحيا داخله الرضا والقناعة ، حماية لعرضه ، وحفظا لكرامته وعزته ، لأن المرء متى ما داخله الطمع علته المذلة والهون والصغار ، يقول :

أمتُّ مَطَامعي فأرحتُ نفسي ... فإنَّ النَّفسَ ما طمعت تهونُ
وأحييتُ القنوعَ وكان ميّتًا ... ففي إحيائه عرضى مصونُ
إذا طمعٌ يحلُّ بقلب عبدٍ ... علتهُ مذلةٌ وعَلاه هونُ([2])

وليس أنجح الوسائل وأحسنها فى علاج القلب وتطهيره من دنس هذه الأمراض من الترفع والتعالي على سفاسف الأمور وصغائرها ، وعدم النزول إلى المهاترات والمشاحنات ، والانتقام والكيل بالمثل ، فإن ذلك مما يشعل النار ويزيدها إضراما ، لاسيما مع صغار الناس ، فليجعل المرء العفو سبيله ليقضى به على تلك العداوات ، ويدفع عنه الشر ، ويدارى عدوه بالسلام والبشر عند اللقاء ، فمعاملة الناس صعبة ، فقربهم داء عضال ، واعتزالهم قطع للمودة وصلة الرحم ، فلا سبيل إذن سوى الترفع عن توافه الأمور ، ومداراة الناس .

يقول الشاعر :

لما عفوتُ ولم أحقد على أحدٍ ... أرحتُ نفسِيَ من همِّ العداواتِ
إني أحيِّي عدوِّي عند رؤيتهِ ... لأدفع الشرَّ عني بالتحياتِ

[1] – الديوان : ص ٦٨–٦٩ .
[2] – الديوان : ص ٨٦ .

وأُظهر البشر للإنسان أبغضه كأنه قد حشـــا قلبي محبـــــاتِ
النَّاسُ دَاءٌ ودَاءُ النَّاس قربهمُ وفي اعتـــزالهم قطـــع المـــوداتِ([1])

فـــ" الشخصية السوية هي التي تتسم بالصفاء والمحبة والتسامح ، مؤمنة بـــأن التسامح هو أكبر مراتب القوة ، وأن حب الانتقام هو أول مظاهر الضعف " [2] ، وعلـــى غرار ذلك ومنه كان منهل شاعرنا ، وهو قائم على أوصاف طرائق الـــشفاء مـــن تلـــك الأمراض ، فالتلطف مع الحاسد ، وملاينته ، وأن تتكرم عليه ، وتجعل الجود والـــسخاء ديدنك معه ، مما يقلع سخيمة الحقد من قلبه قلعا ، وينزع آثاره من نفسه نزعا ، علـــى أن ذلك يتطلب قوة فى النفس، وصبرا فى العلاج ، وتدرجا للوصول إلى نتيجة فاعلة .

يقول :

وأحسن إلى الأحرارِ تملك رقابهم فخيرُ تجاراتِ الكرام اكتسابُهَـــا ([3])

ومن أمراض القلوب التي عرج عليها شاعرنا أيضا ، "الكبر" ، وهو مـــن العلـــل القاتلة والآفات الضارة ، والأمراض النفسية الخطيرة ، التى حيرت جهابـــذة العلمـــاء ، وأتعبت أصحاب علم النفس ([4]) ، فالمتكبر شخص صغير فى نفسه حقير داخلها ، يحـــاول أن يتطاول على الناس ليكمل نقصه ، وهو من الأمراض المنفـــرة التـــي تجعـــل النـــاس ينفرون من صاحبها ، كما يؤدى إلى الكذب والرياء والنفاق ، لذا بادر شاعرنا إلى تقـــديم العلاج ، مستندا فى ذلك على معين القرآن والسنة ، ثم على تجربته الذاتيـــة التـــى هـــى خلاصة تجاربه الإنسانية فى الحياة ، حتى جاءت أبياته كـــسهام يطلقهـــا مـــن جعبتـــه ، مصوبة نحو أهدافها مباشرة بكل دقة لتنفذ إلى القلوب .

يقول :

ولا تمشينْ فى منكِب الأرض فاخرا فعمّا قليل يحتويك ترابُهَـــــا
ومن يذق الدنيا فإنّي طعمتـــــها وسيق إلينا عذبها وعذابُهَـــا
وما هي إلا جيفة مستحيـــــلة عليها كلابٌ همهن اجتذابُهَـــا
فإن تجتنبْها كنت سِلْمًا لأهلـــــها وإن تجتذبها نازعتك كلابُهَـــا

---

[1] – الديوان : ص ٣٠ .

[2] – د. محمود أحمد السيد : معجزة الإسلام التربوية ، ط/ دار البحوث – بيروت ١٩٨٢ ، ص ٨٢ .

[3] – الديوان : ص ٢٢ .

[4] – د . إبراهيم محمد الجمل : الحسد وكيف نتقيه ، ط/ مكتبة القرآن – القاهرة سنة ٢٠٠١م ، ص ٦ .

فطوبى لنفسٍ أودعتْ قعر دارهــا مغلّقة الأبواب مرخى حجابهًا([1])

فعلى غرار القرآن فى النهى عن التكبر ينهى شاعرنا عــن الاختيــال والعجــب بالنفس ، فإن الدنيا أحقر من ذلك ، ومن يتذوق حلاوتها فلا يغتر بها ، وليقارنها بالآخرة ليدرك أنها كجيفة نتنة عفنة تتجاذبها الكلاب ، -وهو تشبيه من الـشاعر محقــر للــدنيا ومنفر منها ، يجعل النفس العاقلة تنفر منها -، فإن صد عنها الإنسان تجنب أهوالهــا ، وإن قرب منها كان كالكلاب التى تتنازع الجيفة ، فطوبى لنفس أدركت حقــارة الــدنيا ، ولم تتكبر أو تختال ، وعاشت آمنة سالمة.

ويختم شاعرنا برأس هذه الأدواء كلها وأهمها ، وهو دعاء الله سبحانه وتعــالى أن يكفى المرء-حسد الحاسدين وكيد الكائدين-وكبر المتكبرين ، وشر الأشرار.
يقول :

يا سميع الدعاءِ كن عند ظنّي واكفني من كفيته الشر منى ([2])

[1] – الديوان : ص ٣٢ .
[2] – الديوان : ص ٨٥ .

المحور الرابع : طبيعة الدهر والاستعداد لصروفه :

إن صاحب اليقين الراسخ فى القلب ، والعقل النابه الفطن ، من يجعل من وسائله فى الحياة التهيؤ لنوازل الدهر ونكباته ، ومعرفة سنة التبديل والتغيير فى الكون ، والمرء منا إذا أخذ نفسه بالحزم والعزم وهيأها لمجابهة النوائب ومصارعة النوازل ، يكون وقعها عليه وقت نزولها سهلا لينا ، فيتفاعل معها ويتعايش ، ويكون تبرمه منها تبرما لا يؤثر فى سير حياته ، أما الغافل غير المستعد لصروف الدهر ، والسادر فى غيه دوما ، فحين تفاجئه يكون وقعها عليه أليما ممضا ، وربما تعطل سير الحياة لديه ، ويتبرم منها تبرما يغضب الله عز وجل ، فتشل حركته ، وتفتر عزيمته .

والمرء بحاجة إلى معرفة الحياة معرفة جيدة ، وأن يدرك سر وجوده عليها ، حتى يأمن مكرها وخداعها ، وينظر للحياة نظرة موصولة بتقوى الله ليعيش وفق إرادته سبحانه ، وسيدرك ساعتها جلية الأمر ولب الحقيقة الذى يكمن فى خداع الدنيا وسرابها.

واستنادا – كعادة الشاعر – على معين الدين الحنيف ، وتجاربه الذاتية ،يكشف عن حقيقة الدنيا وقد نهل من قول رسول الله صلى الله عليه وسلم :" من كانت الآخرة همه جعل الله غناه فى قلبه ، وجمع له شمله ، وأتته الدنيا وهى راغمة ، ومن كانت الدنيا همه ، جعل الله فقره بين عينيه ، وفرق عليه شمله ، ولم يأته من الدنيا إلا ما قدر له " [1]، ومعظم أبيات شاعرنا كان لها أثرها المباشر فى إثراء الفكر والوجدان الشعبى لمخاطبتهما المشاعر الدينية والروحية ، ومن ثم أثرت فى تجارب المتلقين وأفكارهم ، وأسهمت هذه المادة فى الموروث الثقافى للفرد بما يشكل رسوخا فى النفس تقاوم به نكبات الدهر [2] .

فالشاعر بداية يبين حقيقة الدهر وصفاته ، ويحذر منه ، ثم يقدم العلاج الأمثل لاتقاء شره ، فهو يرى أن خير ما يفعله الإنسان العاقل مع الدهر الحذر ، وألا يثق فيه أبدا ، أو يحسن به الظن ، لأن الدهر متى سالمه صاحبه ، ولم يخش عقباه ، يغتر بلياليه

---

[1] – صحيح الجامع الصغير ، ج٢ ، حديث رقم ٦١٨٩ .

[2] – د. محمد عويس : الحكمة فى الشعر العربى فى الجاهلية والإسلام ، ط٢/ المركز الثقافى – القاهرة ، سنة ١٩٩٤ ، ص ١٥٠ .

، ويظن أنها تصفو له ، فتفجؤه بنكباتها ونوازلها ، وقتئذ لا يجد أمامه سوى الندم والحسرة التى لا تفيد ، فنكبته لا تأتى إلا بعد صفو أيامه .

يقول :

تَاه الأعيرجُ واستعلى به الخطَرُ فقلْ له:خير ما استعملتَه الحذرُ
أحسنتَ ظنَّك بالأيام إذ حَسنَتْ ولم تَخَفْ سوءَ ما يأتي به القدرُ
وسالمتكَ الليالي فاغتررتَ بها وعند صفو الليالي يحدث الكدرُ(1)

ومن سنة الحياة أن جُعِل الدهر متقلبا ، لا يثبت على حال أبدا ، وفى أحايين كثيرة يثير العجب والدهشة من فعاله مع الناس ، فقد ترى الأراذل والرويبضة منهم فى عيش هنئ ، ناعم ، يأكلون المنَ والسلوى – على حد قول الشاعر – ، وترى أشرافهم وأسيادهم وقد نكبهم الدهر بلا رحمة ولا شفقة ، تماما كالحمر التى تأكل ما تشتهى ، وتُعلف ما تهوى ، والأسود حتى من الماء لا تروى ، وأمثال ذلك فى حياتنا كثير، لكن من عرف صفة الدهر وتقلبه ، وأنه خائن لا أمان له ، تصبر ولم يظهر شكاية ، أو جزعا يقول الشاعر :

أرى حُمُرًا ترعى وتعلف ما تهوى وأسدًا جياعًا تظمأ الدهر لا تروى
وأشرافُ قومٍ لا ينالون قوتهمْ وقومًا لئامًا تأكل المنَّ والسلوى
فمن عرف الدهرَ الخؤون وصرفه تصبَّرَ للبلوى ولم يظهر الشكوى (2)

فالأيام لا تستقيم على حال أبدا ، فيوم لك ، وآخر عليك ، ويوم أمن ، ويوم نكبة ، وعيش صفو ، وآخر كدر ، ولا يزال كذلك حتى تنتهي الدنيا ، فهذه طبيعته ، يتقلب فيها المرء ، حتى تنتهي أيامه ، يقول :

الدَّهْرُ يَوْمَانِ ذا أَمْنٌ وَذَا خَطَرُ وَالْعَيْشُ عَيْشَانِ ذَا صَفْوٌ وَذا كَدَرُ (3)

ولا زال حديث شاعرنا موصولا عن الدهر ، واصفا ومحذرا وآسفا عليه وعلى الذين يغترون به ، فنكبات الدهر عذاب وألم ، وتغير وتقلب ، لا نعتب فيه على أحد ، ولا نأسف فيه على شئ ، يقول :

---

1 – الديوان : ص ٤٤ .
2 – الديوان : ص ٩١ .
3 – الديوان : ص ٤٥ .

تَبَيَّن زَمانَكَ ذا واقتصِد　　فإنَّ زمانَك هذا عَــذابُ
وأقلِلِ عتابًا فما فيه مَن　　يُعَاتَب حين يَحِقُ العتابُ (١)

ومن صروف الدهر أيضا ومرارته ما تحويه الدنيا من أناس أراذل ، لا خلاق لهم ، ولا مروءة فيهم ، امتلأت نفوسهم غشا وكذبا ونفاقا وغلظة ، أحسنهم مروءة وأكثرهم أدبا ورقة ، من يسب صاحبه ويتسافه عليه ، فما بالنا بالآخرين ؟ ، وهــؤلاء لا بــد أن يلاقيهم المرء بالبشر والحسن والمودة ، اتقاء لهم ، واجتنابا لأفعالهم ، ومن يفعل ذلــك فهذا من نعم الله عليه ، وإلا فليحتسب ذلك بلاء من الله بحاجة إلى الصبر .

يقول :

مضى النّاسُ طُرًّا وبادوا سِوى　　أراذِل عَنْهُم تجل الكــــــلاب
يُلاقيكَ بالبشر دهمـــــاؤهم　　وتسليم من رَقّ مِنهم سِبـــــاب
فأحسِن وما الحُرُّ مُستَـحسِنٌ　　صِيانٌ لهُم عَنهُم واجتِنــــاب
فإن يُغنِه الله عنهُم يفــــــر　　وإلا فذاك البلاءُ العُجـــاب (٢)

أيضا كثر في الناس النفاق والتلون والمداهنة ،وهذا من شرور الــدهر أيــضا ، فمنهم من لا مبدأ له ولا عقيدة ، يميل حيث المنفعة والمصلحة ، ويصد عنك صــدودا إذا مالت الريح عنك ، فهذا لا خير فيه ولا في صحبته ، فهو يظهر لك أنه من أكرم النــاس حينما يعلم عدم حاجتك للمال ، وعند الحاجة لا تجده ولا تجد ماله ، فهو البخيل بكل شئ ، يقول :

ولا خير في ود امرئ متلـــــــون　　إذا الريح مالت مال حيث تميلُ
جَوَادٌ إذا استغنيت عن أخذ مالـــــه　　وعند احتمال الفقر عنك بخيـلُ(٣)

وبعد أن أبان شاعرنا عن صفات الدهر ، بدأ في وصف العلاج النــاجع ، وأخــذ يقدم النصح والإرشاد ، وهو الذي قد خبر الدنيا وحنكته الأيام ، واكتوى من نيرانها، ولا أنجع علاجا من الزهد فيها ، وتركها بحلوها ومرها ، وعــذبها وعــذابها ، لأن المتأمــل العاقل فيها يدركها على حقيقتها ، وأنها لا تصلح لعاقل زاهد وطنا ، ثم يضرب الــشاعر

---

1 – الديوان : ص ٢٩ .

2 – الديوان : ص ٣١ .

3 – الديوان : ص ٧١ .

مثلا رائعا ، يشبه فيه الصالحين وقد اتخذوا من صالح أعمالهم سفينة يعبرون بها لجة الدنيا ، إنقاذا لهم من الغرق فيها ،وهى صورة خيالية دائما ما يكثر منها الشاعر، يقول:

إن لله عبادًا فطنـــا تركوا الدنيا وخافوا الفتنَـــا
نظروا فيها فلما علموا أنها ليست لحـــى وطنَـــا
جعلوها لجةً واتخـذوا صالحَ الأعمالِ فيها سفنًا (١)

ومن نصائحه أيضا رحمه الله ، اغتنام الفرص فحينما تعتدل الدنيا معك ، وتقبل عليك ، لا تغتر بها ولا تفرح ، بل اغتنم تلك الفرصة ، وأكثر من فعل الخير والتصدق والإحسان إلى الناس ، فإنها ولا شك ستكشر عن أنيابها لك بعد ذلك ، فتكون أنت قد قدمت ما يحميك ويرضيك ، وقد صور الشاعر الدنيا بالريح التى تحمل الخير والغيث ، ثم تهدأ ويعقبها سكون ، فإن أنت لم تغتنم ذلك الخير سيكون الخسران ، يقول :

إذا هبتْ رياحُك فاغْتنمـــهَا فعقبى كل خافيةٍ سكـــونُ
ولا تغفلْ عن الإحسانِ فيـــها فلا تدرى السكون متى يكونُ (٢)

ويجب صيانة النفس ، وعفها والرفع من شأنها ، وحملها على ما يجعل المرء نبيلاً عزيـزا فـى أعـين الناس ، مهما تنكر له الدهر ، أو جفاه صديق ، فالناس كثير جدا ، لكنهم وقت الحاجة لا تجد منهم رجلا يـؤازرك ، ويقف إلى جوارك فى مصابك ، يقول :

صن النفسَ واحملها على ما يزينُهَـــا تعشْ سالمًا والقولُ فيك جمـــيلُ
ولاتُريَنَّ الناسَ إلا تجمّـــــــلا نبا بك دهرٌ أو جافاك خـــليلُ
فما أكثرَ الإخوان حين تعدهــــم ولكنهم في النائبات قليـــلُ(٣)

وبهذه النظرة الثاقبة لحقيقة الحياة ، المدركة لواقع الناس ، يحدد شاعرنا هدفه ، ويقدم للناس درره ، وقد ألبسها ثوبا قشيبا ، فى أسلوب سهل ، ينفذ إلى القلب مباشرة ، والشاعر اعتاد أن يطلى أبياته ألوانا من الخيال الرائع والتشبيهات التى من شأنها أن تقرب الصورة للقارئ ، فالصورة فى الشعر هى الشكل الفنى ، الذي تتخذه الألفاظ والعبارات بعد أن ينظمها الشاعر فى سياق بياني خاص ، متكئا على إمكانات اللغة فى

[1] – الديوان : ص ٨٥ .
[2] – الديوان : ص ٨٧ .
[3] – الديوان : ص ٧١ .

الدلالة والتركيب ووسائل التعبير الأخرى، حتى تؤدى الأبيات دورها المنوط بها(١)، ولعل ذلك ما دفع د. مصطفى الشكعة أن يقول :" فإننا لا نكون غالين أو مبالغين إذا ما قررنـــا أن شعر الزهد عند الشافعي ربما كان خير شعره ، بل هو من خير ما أُثِر من شعر الزهد فى الأدب العربي "(٢).

[1] – د .عبد القادر القط : الاتجاه الوجداني فى الشعر العربى المعاصر، ص ٤٣٥ .

[2] – د . مصطفى الشكعة : الإمام محمد بن إدريس ، ط/ دار الكتاب المصري – القاهرة ١٩٨٤ م ، ص ٩٧ .

الخاتمة:

وبما تم طرحه سابقا ، نكون بحمد الله قد وصلنا إلى خاتمة البحث ، الذى انتهى إلى النتائج الآتية :

أولا : كان الشافعي شاعرا فصيحا بليغا ، قريب المعاني ، سهل الأسلوب ، وذلك بشهادة كبار العلماء ، كالأصمعي وغيره .

ثانيا : كانت مادة شعره فى هذه المحاور تعتمد على التأمل والتفكير بالدرجة الأولى ، مستندا فيها الشاعر على معين القرآن والسنة ،ثم على خبرته فى الحياة ،وتجاربه الذاتية فيها ،أما تجلياته الفنية ففى المقابلات والمفارقات ، التى تجعل من الكلام ما يشبه الأمثال السائرة ،التى يتداولها الناس فى حياتهم اليومية .

ثالثا : الصور الفنية فى شعره اقتصرت – تقريبا – على الصور الجزئية فقط ، كالتشبيهات والاستعارات والكنايات ، التى من شأنها أن تنقل فكرته سهلة مبسطة لقارئه.

رابعا : يسهم شعره فى بناء الفرد فى المجتمع المسلم ، لما يحويه من قيم وفضائل تعود بأثرها على الفرد ومجتمعه .

خامسا: كان شعره فى المحاور التى تناولها البحث يركز على معالجة النواحي النفسية لدى الفرد فتخلق لديه يقينًا راسخًا ، لذا فأبياته تمس شغاف القلب ، فتساهم بفاعلية فى التغلب على العديد من المشكلات النفسية وأمراض القلوب .

سادسا : تضمن شعره آراء ونظريات تربوية وتعليمية سباقة ، تتعلق بالإنسان من كل جوانبه المادية والروحية .

سابعا : على الرغم من كثرة المقطوعات والنتف فى شعره ،– إذ قليلا ما نصادف قصائد طويلة – فإنها جاءت مكتملة المعنى ، وافية المضمون ، وتحمل أحيانا صورا فنية مكتملة الأركان .